

جامعة تكريت
كلية العلوم الإسلامية
قسم العقيدة والفكر الإسلامي

محاضرات مادة التصوف والأخلاق

المرحلة الأولى

المحاضرة التاسعة

أقسام التصوف :

إعداد

د. عبدالله نجم عبدالله

اقسام التصوف :

لم يأخذ التصوف شكلا واحدا او طبيعة واحدة وانما اتخذ اشكالا عدة كما رأينا قبل قليل ولذلك اختلف الناس في نظرته اليه وتباينت آرائهم فيه ، حتى كانوا فيه على رأيين متناقضين فهم فيه بين قادح ومادح ولذا اردنا ان نقف على ملامح مسيرته وقواعده وطبيعته وطريقة ، وما ينطوي عليه من مبادئ واتجاهات لنرى مدى ملائمة كل منها للشريعة الإسلامية .

وقد قسم بعضهم التصوف الى نوعين رئيسيين تندرج فيهما كل موضوعات التصوف ،

وهما يمثلان التصوف في جميع مرمله سواء كان احدهما هو الأصل والثاني انحرافا عنه ام لا (1) ؟ ، فنحن امام نوعين نجدهما واضحين فيما كتب عن التصوف عبر العصور وهما : التصوف العلمي ، التصوف النظري فهما يجمعان موضوعات التصوف جميعهما المقبولة منها والمردودة ، وسنرى فيما يأتي كيفية جمعها لها .

أ. التصوف العملي :

التصوف العلمي يشمل كل ما كان من (رياضة النفس ، ومزاودة الطبع برده عن الاخلاق الرذيلة وحملة على الاخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والصدق الى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدح والثواب في الآخرة) (2) واهلم ما يمتاز به أصحاب التصوف العلمي الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة وقد كان هذا

عاما في الصحابة (□) والتابعين (3) كذلك واشتهر بعضهم بهذه الأمور كسلمان

(1) ذهب بعضهم الى أن التصوف لا يمكن أن يوجد فيه ابتكار من ناحية الموضوع وانما يمكن أن يوجد فيه انحراف عن الجادة وخطأ في الاتباع ، فليس هناك توف فلسفي واخر علمي وانما فهم صحيح أو فهم سقيم لمسائل التصوف ، ينظر : التصوف عند ابن سينا عبد الحليم محمود ص ١٦ ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة .

(2) ينظر : تلبيس ابليس ص ١٦٣ .

(3) ينظر : مقدمة ابن خلدون : ٣ / ١٠٦٣ .

الفارسي (٤) وأبي ذر الغفاري (٥) ، وأويس القرني (٦) والحسن البصري (٧) وكثيرين غيرهم (٨) ، فقد صرفوا اهتمامهم لكل ما يصلح باطنهم بمراعاة أنفسهم ، ومراقبة خطرات قلوبهم ، جاهدين بتصفية نفوسهم وتركيتها من أذران الشهوات ومألوفات العادات (٩) .

وأن الزهد الذي هو ترك ما لا ينفع في الآخرة موجود في القرآن الكريم وقول

النبي (ﷺ) (وهو أقوى دليل على أن مصدر الحياة الروحية في الإسلام إسلامي

(٤) سلمان الفارسي (ﷺ) : من الصحابة الاجلاء ، اصله من أصفهان ، اسلم على يد النبي (ﷺ)

(كان قوي الجسم نشيطا ، عالما بالتشريع ولي امارة المدائن توفي سنة ٣٦ هـ يروى انه كان يحلق شعر النبي (ﷺ) .

(٥) أبو ذر الغفاري (ﷺ) : يقال اسمه جندب بن جنادة بن قيس وهو المشهور وقيل اسمه بربير

بن جنادة ، خامس من اسلم على يد رسول الله (ﷺ) توفي سنة ٣٢ هـ .

(٦) أويس القرني (ﷺ) : هو أويس بن عامر راهب هذه الامة لم يصحب رسول الله (ﷺ) وانما

ذكره رسول الله (ﷺ) ودل على فضله ، ينظر : صحيح مسلم : ٤ / ١٩٦٨ والمستدرك على

الصحيحين : ٣ / ٤٥٥ وقال : أوردته في جملة من استشهد بصفين بين يدي امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه .

(٧) الحسن البصري : سبقت ترجمته .

(٨) ينظر : رسائل الإصلاح : ٢ / ٧ - ٩ وخصائص الحياة الروحية لمحمد جلال ص ٣٦ -

٤١ ، طبع رويان الإسكندرية ، نشر دار الفكر الجامعي .

(٩) ينظر : شفاء السائل ص ٣٥ .

بحث (^{١٠}) وقد كان اهم ما يرتكزون عليه في ذلك هو الاستقامة على طريق الهدى وسكون عن الخلق (^{١١}) فعملوا جاهدين في كيفية تحقيق هذه الاستقامة والتزام الطريق وترويض انفسهم على هذه التربية (^{١٢}) .

اما أساس هذه الاستقامة فهو التحلي بالأخلاق الذي هو جوهر طريقتهم كما قال ابن الجوزية : (واجتمعت كلمة الناطقين بهذا العلم أن التصوف هو الخلق وجميع الكلام فيه يدور على قطب واحد وهو بذلك المعروف وكف الأذى) (^{١٣}) .

فيرجع علمهم وجهدهم كله الى رياضة النفوس وتنوير القلوب ، وتطهيرها الاخلاق الحميدة ، واجتتاب الاخلاق الذميمة ، وهذا نجده في القرآن الكريم بكثرة (^{١٤}) ، ولقد اعتنوا به ليتحقق لهم قربهم من الله تعالى واخضعوا جميع حركاتهم وسكناتهم للمراقبة لكي لا تخرج عن طاعة الله تعالى ، ومراعاة الانفاس مع الله اهم ما يصبون اليه (^{١٥}) ، ورأوا أن صلاح الباطن وطهارة القلب هما اهم ما يصلح حال الانسان ، فنظروا الى الباطن واعتنوا به وبدراسته اذ ليس هو من عناية الفقهاء (^{١٦}) . وان كان علم الشريعة علما واحدا لكن يجمع بين اعمال ظاهرة واعمال باطنة ، والاعمال الظاهرة كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها ، واما الاعمال الباطنة فهي اعمال القلوب كالإخلاص واليقين والصدق والتوكل ، وتدخل كلها في أوامر الشرع (^{١٧}) ومأمور بها في العامة والخاصة وهي واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل باتفاق اهل الدين (^{١٨}) وقد كانت علاقة الفقه بظاهر العمل وتصحيحه ، أما

(^{١٠}) ينظر : الحياة الروحانية حلمي مصطفى ، طبعة مصر ص ٢٧ .

(^{١١}) ينظر : عوارف المعارف : ص ٦٤ .

(^{١٢}) ينظر : شفاء السائل : ص ٣٥ .

(^{١٣}) ينظر : مدارج السالكين : ٢ / ٣٢٩ .

(^{١٤}) ينظر : التسهيل للكلي تحقيق محمد عبد المنعم اليونسي وإبراهيم عطوة ، ١ / ١٣ مطبعة احسان القاهرة .

(^{١٥}) ينظر : الرسالة القشيرية : ١ / ٥٠ .

(^{١٦}) ينظر : احياء علوم الدين الامام الغزالي : ١ / ٢١ طبعة بيروت .

(^{١٧}) ينظر : اللمع : ص ٤٣ - ٤٤ .

(^{١٨}) التحفة العراقية لابن تيمية : ص ١٥ تعليق طه خليل الحيايلى مطبعة بغداد ومطبعة عصام ١٩٨٠ م ومجموع الفتاوى لابن تيمية : ١٠ / ٦ ..

الامر الذي يتعلق في القلب فهو ما تحدث به السادة الصوفية رحمهم الله تعالى (١٩) ،
نفعا الله تعالى ببركات علومهم الشريفة أمين .

والعناية بالأمور الباطنة التي هي من صميم الشرع والتي تمثل المرتبة الثالثة للدين
وهي الاحسان ، كما جاء في حديث جبريل (ﷺ) ، والاحسان هو المراقبة لله
تعالى ، وهو ما يقصده الصوفية من مراقبة افعالها وحركاتها (٢٠) .

فالتصوف الخالص كما قال المودودي : ليس بشيء مستقل عن الشريعة ، وانما هو
علم بإحكامها بغاية من الإخلاص وصفاء النية وطهارة القلب ، وهو في حقيقة الامر

عبارة عن حب الله تعالى ورسوله (ﷺ) الحب الصادق ، بل الولوع بهما والتفاني في

حبهما (٢١) ، ويتحول هذا الحب الى عاطفة لتهديب النفس وعدم الاغترار بالدنيا مما

هو معروف من سيرة النبي (ﷺ) وصحابه الكرام (ﷺ) ، ففي هذه الصورة لا يعدو

أن يكون مزيدا من الصلة بالله تعالى والاعتصام به والتبتل اليه فلا يتصور أن يخرج
هذا عن الكتاب والسنة (٢٢) .

فهو بهذه الصورة مقبول لأنه ينبع من روح الإسلام ويدعوا الى الله تعالى والى
تطهير الروح اذا كان خاليا من النظريات المنافية للإسلام بعيدا عن التعقيدات ،
ويقضي منا الانصاف أن لا نهجره بما سواها كان تحت اسم التصوف ام غيره من
الأسماء ما دام اننا نفرح بحاجتنا الى مثل هذا الإصلاح والتطهير (٢٣) ، ولطالما جنت
كثير من المصطلحات على كثير من الحقائق وترك من الخير لانتساب اهل الشر اليه
(٢٤) .

(١٩) ينظر : شفاء السائل : ص ٢٧ .

(٢٠) ينظر : اللمع : ص ٢٢ وركائز الايمان بين العقل والقلب : ص ١٣٩ محمد الغزالي مطبعة
الجيل لبنان سنة ١٩٦٨ م .

(٢١) ينظر : مبادئ الإسلام لابي الأعلى المودودي : ص ١١٧ .

(٢٢) ينظر : ركائز الايمان : ص ١٧٧ .

(٢٣) ينظر : المصدر السابق : ١٨١ .

(٢٤) ينظر : تقديم الندوي لكتاب بين التصوف والحياة .

وبعد تصفية النفس والروح وتطهير القلب بما يقومون به من رياضيات ومجاهدات يحصل لهم ادواقا واحوالا ومواجيد يدركون^(٢٥) ، وقد تكلموا عنها كثيرا وعمما يحصل للسالك في طريقة المجاهدات من أحوال ، يقول ابن خلدون : (وكذلك المرید في مجاهداته وعبادته لا بد وان ينشأ له عن كل مجاهدة حالا هي نتيجة لتلك المجاهدة)^(٢٦) وقد عبروا عنها بالمقامات والاحوال ، المرید يترقى بها من مقام الى مقام الى أن ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة^(٢٧) ، فهذه الحالات الوجدانية التي يتدرجون فيها هي التي تعرض لهم من خلال المجاهدات والرياضيات التي يقومون بها ، لذلك غلب على الصوفية الحديث عن هذه الأمور ومعالجة علل النفوس ، وامراض القلوب وإصلاح الباطن كان مدار حديث الصوفية وشغلهم الشاغل ، افاضوا فيه من الكلام اكثر مما افاض فيه غيرهم ، فلهذا نسب اليهم والا فليست هذه الامور مما يستهان بها ، أو مما لا يدركها الجميع ويعرف نتائجها العلماء^(٢٨) .

وضرورة هذا الجانب والتركيز عليه في اصلاح الانسان معلومة للكل لا ينكره احد لان المقصود من العلم هو العمل وصلاح الباطن ورقة القلب ، ومراعاة هذه الأمور واجبة لا شك فيها^(٢٩) .

فالتصوف اذن ان كان بهذا المعنى من التربية والإصلاح فأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة كما قال الشاطبي رحمه الله^(٣٠) ولا يمكن أن يكون الكلام فيه بدعة ، لأنها أمور مستنبطة ترجع الى أصول شرعية ، وان لم يكن فيها فيما سلف^(٣١) ، بل يصح لنا أن نقول أن التصوف بمثابة علم نفس إسلامي ، لان بحوثه مستفيضة في تهذيب النفس ، وإصلاح الاخلاق ، وهذا الأساس في التصوف معلوم وانما هو اخلاقيات مستمدة من الإسلام واخلق الإسلام أساس الشريعة وهي روح الإسلام

^(٢٥) ينظر : ابن الفارض والحب الإلهي لمحمد مصطفى حلمي : ص ٥٦ .

^(٢٦) ينظر : مقدمة ابن خلدون : ٣ / ١٠٦٤ .

^(٢٧) ينظر : المصدر نفسه والموضع عينه .

^(٢٨) ينظر : شفاء السائل : ص ٢٧ وركائز الايمان : ص ١٧٤ - ١٧٥ .

^(٢٩) ينظر : صيد الخاطر لابن الجوزي : ص ٢١٦ دار الكتب العلمية بيروت .

^(٣٠) ينظر : الاعتصام للشاطبي : ١ / ٢٠٧ إبراهيم ابي إسحاق الغرناطي الطبقة الثانية بيروت دار المعرفة .

^(٣١) ينظر : المصدر السابق : ١ / ٢٠٨ .

(٣٢) ولأن الاحكام التي انطوى عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة اما احكام اعتقادية ، او احكام عملية ، او احكام أخلاقية وهي التي اختص بدراستها علم التصوف (٣٣) ، وهذه الأسس والمبادئ للتصوف من زهد وعبادة واخلاق أمور ثابتة في القرآن والسنة ومأمور بها جملة وتفصيلا (٣٤) وقد تقيد الصوفية بهذا الركن العظيم وهو التهذيب علما وتخلقا وتحققا ، فكتبوا في الاخلاق ومحاسبة النفس مما لا يطاولها فيه مطاول كما قال الشيخ رشيد رضا (٣٥) رحمه الله تعالى : المقامات والاحوال : كالشهود (٣٦) ، والفناء (٣٧) ، والبقاء (٣٨) ، والبسط (٣٩) ، والقبض (٤٠) ، وما الى ذلك مما هو معروف بينهم حتى اضحى لهم رسمهم الخاص بهذه المصطلحات التي اقتضتها طبيعة حالة سلوكهم وحالهم ومجاهداتهم (٤١) .

(٣٢) ينظر : مدخل الى التصوف الإسلامي : ص ١٥ - ١٩ .

(٣٣) ينظر : الوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم زيدان : ص ١٥٥ مكتبة القدس بغداد .

(٣٤) ينظر : الفلسفة القرآنية عباس محمود العقاد : ص ١٧٧ .

(٣٥) ينظر : فتاوى الامام رشيد رضا : ٤ / ١٤٧٥ الطبقة الأولى دار الكتاب الجديد بيروت جمع وتحقيق د. صلاح الدين المنجد ، يوسف فاخوري .

(٣٦) الشهود : وهو أن يرى المرید حظوظ نفسه ، وتقابله الغيبة ، وهي أن يغيب عن حظوظ نفسه ، فلا يراها وهو على قسمين : ١- شهود المجمل : وهو في المفصل رؤية الاحدية في الكثرة . ٢- شهود المفصل في المجمل رؤية لكثرة في الذات الاحدية ، ينظر : معجم مصطلحات الصوفية : ص ١٤٢ .

(٣٧) الفناء : تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات فكلما ارتفعت صفة قامت صفة الهيئة دون الذات مقامها ، فيكون الحق سمعه وبصره كما نطق به الحديث ، لمزيد من المعلومات راجع معجم مصطلحات الصوفية : ص ٢٠٧ .

(٣٨) البقاء : رؤية العبد قيام الله تعالى على كل شيء ، وقيل بقاء رؤية العبد في قيام الله له في قيامه الله قبل قيامه الله بالله ، وقيل هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله ، وهو مقام النبيين .

(٣٩) البسط : في مقام القلب بمثابة الرجاء في مقام النفس ، وهو وارد تفضيحه إشارة الى قبول ورحمة انس ، ويقابله القبض ، كالخوف في مقابلة الرجاء في مقام النفس ، والبسط في مقام الخفي هو أن يبسط الله تعالى العبد مع الخلق ظاهرا ، ويقبضه اليه باطنا رحمة للخلق فهو يسع الأشياء ويؤثر في كل شيء ولا يؤثر فيه شيء وقيل يجد المحب القبض أولا ، ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط لانهما يقعان في الموجود ، فأما مع الفناء والبقاء فلا . ينظر : معجم مصطلحات الصوفية : ص ٣٤ والرسالة القشيرية : ص ٥٥ .

(٤٠) القبض : حال شريف لأهل المعرفة ، اذا قبضهم الحق احشهم عن تناول القوام والمباحات والاكل والشرب والكلام ، ويقابله البسط ، فاذا بسطهم ردهم الى هذه الأشياء وتولى حفظهم في ذلك ، فالقبض حال رجل عارف ليس فيه فضل لشيء غي معرفته ، والبسط حال رجل

نظرا لطبيعة هذه الأحوال التي كانت خاصة لأصحابها الذين ادركوا منها ما لا يدرك سواهم ، ولأنها أمور ذوقية لا يدركها غير أصحابها وقد واجهوا بعض النقد الشديد لفكرتهم وطريقتهم لكون هذه الأمور ليست من مدركات العقل والحس^(٤٢) ، اذن يصبح التصوف العلمي جامعا بين مجاهدة النفس ومحاسبتها والكلام عن الانواق والواجب التي تعترضها وما يقومون به من شرح لهذه المصطلحات التي تدور بينهم^(٤٣) .

اما مدى قيمة هذه الانواق ومتى الاعتداد بها فهو موقف على عرضها على الكتاب والسنة فما وافقهما ، فهو مقبول ، وما عارضهما فهو مردود على صاحبه ، ولا يكون حجة شرعية لاحد^(٤٤) ولا يتقدم شيء منها على حكم شرعي ، وقد وردت عبارة تندد بذلك وتضل من سلك طريقهما^(٤٥) ، كقول القشيري رحمه الله تعالى : (كل خاطر لا يشهد له ظاهر فهو باطل)^(٤٦) ، اما الحديث عن هذه المواجيد والانواق ، فهو مما لا ينفع السالكين وانما هي نتائج حصلت لأصحابها فعلى من حصلت له كتمانها وعدم افشائها ، لأنها ثمرة المجاهدة ، فالحديث عنها مجردا عن العمل فيه نوع بطالة ومما لا ثمرة فيه ، وربما يكون مجلبة للضرر فيحرم الكرم كما قالوا :

من أظهره على سر وباح به لم يطلعوه على الاسرار ما عاشا
وأبعده فلم ينعم بقربهم وأبدلوه مكان الانس اياحاشا

عارف بسطه الحق وتولى حفظه حتى يتأدب الخلق به ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ

قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَلِّعَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة : الآية ٢٤٥ . ينظر :

معجم مصطلحات الصوفية : ص ٢١٣ والرسالة القشيرية : ص ٥٥ .

(٤١) ينظر : شفاء السائل : ص ٤١ .

(٤٢) ينظر : بين التصوف والحياة للندوي : ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٤٣) ينظر : مقدمة ابن خلدون : ٣ / ١٠٦٣ ، وكشف المحجوب للهجويري : ٢ / ٦٠٣ .

(٤٤) ينظر : الاعتصام للشاطبي : ص ٢١٨ .

(٤٥) ينظر : مدارج السالكين : ٢ / ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٤٦) ينظر : شرح الرسالة القشيرية : ١ / ٢٤٢ .

لا يصطفون مذيعة بعض سرهم حاشا جلالهم من ذلكم حاشا^(٤٧)

وعد الصوفية المعتبرون الحديث عنها من البدع التي ظهرت ولم تكن في سلفهم لان العلماء منهم يظهرون للناس ما ينفعهم ويخفون ما يضرهم لئلا يوقفوا السامع في حيرة والعامل في ضلال^(٤٨).

^(٤٧) ينظر : قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر : ص ٩٦ ، للعلاقة محمد بن يحيى التاذفي الحلبي المتوفي سنة ٩٦٣ هـ ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٦ م ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

^(٤٨) ينظر : قوت القلوب لابي طالب المكي : ١ / ٣٣٤ المطبعة المصرية ١٩٦١ م .